## المبحث الثالث

# القيـــم والتـراث

« القيم » و « التراث » مصطلحان يمثلان مشكلتين في الأزمة المعاصرة التي يعاني منها كثيرٌ من المسلمين على المستوى الفكري والعملي، وسأتناول القيم أوّلاً ثم التراث .

### أولاً : القِيَمُ

القيم هي : الصفات التي تتميَّز بها الحياة الإنسانيّة عن الحياة الحيوانيّة، بحيث لا تتحقّق كرامة الإنسان إلا بها ، ولا يتحقق التماسك الاجتماعي إلا باعتمادها .

ومفهومنا للقيم -هنا- لا يقف عند الأساسية منها كالحق والخير والعدل والوفاء ونحوها، وإنما يشملها مع القيم الاجتماعيّة التي تتمثَّل في تقاليد وأعرافٍ إنسانيّةٍ ساميةٍ معتبرةٍ شرعاً .

حينما بعث الله نبيّه محمّداً ﷺ بالإسلام ، كان عند العرب كما عند غيرهم قيمٌ وأعرافٌ وتقاليد بعضها متولّدٌ من ظروف اجتماعيّة، وآخر نابعٌ من الفطرة الإنسانيّة والأريحيّة في النفوس الزكيّة ؛ ولهذا اختلط فيها الحق بالباطل فهذَّبها الإسلام؛ زكَّى بعضها، وأيده، وأخبر أنّ الإسلام يحثُّ عليه[1]،

---

(١) حينما ذكرت سفانة بنت حاتم الطائي لرسول الله ﷺ صنيع أبيها - وهو جاهلي مات كافراً - مثل : إقراء الضيف ، وإغاثة الملهوف ، والإعانة على النوائب . إلخ قال ﷺ فيما رواه البيهقي : « هذه صفة المسلمين حقّاً » . قال ابن الأثير في البداية والنهاية ٥/ ٦٧ : « هذا حديث حسن، غريب الإسناد » الطبعة الثانية، ١٩٧٨م، مكتبة المعارف، بيروت.

وعدَّل بعضها لتتسق مع المنهج الإسلامي[1] ، وألغى بعضها نهائياً لمصادمته منهج الإسلام حقّاً وعدلاً[2]، كما أضاف إليها قيماً جديدةً في قضايا العلم والتديّن والرّجولة والشورى والعمليّة واطَّرح الخرافة والدجل والولاء والبراء . . . إلخ من القيم التي يتشكَّل منها جميعاً سمت المؤمن والمجتمع المسلم المتميِّز عن سائر المجتمعات .

ولقد أحدثتْ هذه القيم في شخصيّة العربي نقلةً عجيبةً نحو الحركة الإيجابيّة في العلم والدعوة للحقِّ والبناء الحضاري الذي نعيش على تراثه في عصرنا الحاضر .

ولكنّ كثيراً من هذه القيم ضعف في عصور التخلّف عند المسلمين ، وعادتْ بعض القيم الجاهليّة فضلاً عمّا ورثوه من الأمم الأخرى من انعزاليّة صوفيّة ، وسلبيّة تواكليّة ، وتجاهلٍ للمصالح العامة ؛ ولهذا حدث فراغٌ قيميٌّ في كثيرٍ من مجتمعات المسلمين حتى أطلَّتْ عليهم أوربا بقيمها وتقاليدها .

وشأن أوربا الحديثة مع القيم أنه نتيجةً لشيوع الفلسفات الماديّة الملحدة والنفعيّة، دُمِّرت القيم الإنسانيّة تدميراً هائلاً من خلال تحطيم مصادرها الأصليّة، التي من أبرزها « الدين » الذي حاربته هذه الفلسفات حتى خرج من دائرة التأثير، وانحسرتْ توجيهاته الخلقيّة والقيميَّة ، وحلّتْ مقامه الفنون التي توجِّهها الشهوات الخسيسة ، والمطامع الأنانيّةُ لتكون هذه الفنون هي التي

---

(١) كان من مقولات الجاهليّة : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » أي أنّ عاطفة القرابة ينبغي أن تحملك على إعانته حتى وإن كان ظالماً معتدياً ، فعدَّل الإسلام في مضمونها مع بقاء لفظها، فصارت الأخوة هنا أخوة الإسلام ، ونصره إذا ظلم بردعه عن الظلم .

(٢) كحميّة الجاهليّة التي حاربها الإسلام ،وقال ﷺ : « قد أذهب الله عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، والناس بنو آدم، وآدم من ترابٍ » رواه الترمذي، وهو آخر حديث في سننه، ٥/ ٣٩١، وقال عنه: « حديث حسن » .

ترسم القيم العمليّة التي ينبغي أن يسير عليها الناس ، معتبرةً القيم الدينيّة مثاليّةً ورجعيّةً لا يليق بإنسان هذا العصر أن يتشبَّثَ بشيءٍ منها .

ومن مصادرها أيضاً : « الفطرة الإنسانيّة » حيث حطَّمتها نظريّةُ التطوّر العضوي « الداروينيّة »، وأجهزتْ عليها الفلسفة الوجوديّة الملحدة ، التي تنكر أيّ ماهيّة إنسانيّة للإنسان ، مساويةً إيّاه بالحيوان ، منكرةً عليه تلك القيم التي يلتزمها بحجّة أنّها قيودٌ وكوابح تعوق حريَّة الإنسان وانطلاقته الشهوانيّة ، ينبغي أن يحطِّمها .

ونتيجةً لسيطرة الروح « البراجماتيّة » المتركِّزة في المصلحة الماديّة الشخصيّة، فقد نشأت قيمٌ قد تشبه في ظاهرها القيم الدينيّة والإنسانيّة ، ولكنها في الحقيقة قيمٌ خادعةٌ هدفها ودافعها هذه المصلحة الماديّة، واستغلال الناس باجتذابهم بهذه القيم، حتى سميت بـ « الأخلاق التجاريّة » ؛ ولهذا تقع المتناقضات في مسالك هؤلاء ، حيث ينكشف ذلك الملتزم بالصدق والوفاء بتعهُّده في معاملات معيّنة عن مجرمٍ كبيرٍ يمارس التزوير والسَّرقات الكبرى ، وتتكشَّف الشركة المشهورة بسلامة منتجاتها وحسن التعامل مع زبائنها عن أعمال غشٍّ وخداعٍ خطيرة تذهب ضحيتها نفوس الناس ، حتى « العلم » تلك القيمة الكبرى المتغنَّى بها أصبح كما يقول ماسلو : « سلعة تكنولوجيا يمكن لأيّ شخص أن يشتريها لأيّ غرضٍ ، وأصبح العلماء مرتزقةً يتكسَّبون بهذا العلم في أيِّ مكانٍ »[1] .

ولكن هذا لا يعني إجداب الحياة الغربيَّة تماماً ، فما تزال بقايا القيم الإنسانية لدى أفرادٍ كما لدى جماعاتٍ تحبُّ الخير لذاته، وتطلب المعروف

(١) مجلّة الأمة ، العدد [٢]، ص ١٨ ، ترجمة ماجد عرسان عليان .

بدافعٍ إنسانيٍّ، وتنأى بنفسها عن منكرات الأخلاق بحفز الضَّمير، ولهذا نرى صوراً من احترام الآخر، ومن الجدِّيَّة في العمل، وعقلانيَّة الحركة والجهود الإغاثيَّة للمنكوبين ونحوها من شواهد وجود قيمٍ إنسانيَّةٍ لدى الغرب.

وقد يدفع استشراء الفساد في الحياة، واضطراب الأحوال إلى بعث بعض القيم والتشبث بها ، فقد حفزت الحروب الطَّاحنة في أوربا في هذا العصر إلى إخراج بعض المواثيق المهمَّة والتشبث بها، مثل: الإعلان العالمي لحقوق الإنسان المتضمِّن لكثيرٍ من القيم الإنسانيَّة الكبرى، التي تتعطش البشرية المنكودة في هذا العصر إلى تطبيقها .

بهذه الصُّورة المزدوجة برزت أوربا أمام المسلمين في عصرهم الحديث، فتعاملوا مع القيم من خلال هاتين المفرزتين :

- عصور التخلف عند المسلمين التي تهدمت فيها كثيرٌ من القيم، وشاع فيها الدَّجَلُ والسَّلبيَّةُ وضعف الهمَم .
- والثقافة الغربية التي قذفت إلى هذه الأمة بأسوأ منتجاتها في التصورات والقيم والتقاليد من خلال هيمنتها الاستعمارية، وبعض المبتَعَثين من أبناء المسلمين، الذين زاغت أبصارهم فاستلبوا لها ، والمقصود أنَّ القيم والتقاليد في كثيرٍ من مجتمعات المسلمين لم تعد على صورتها الوضيئة ، التي شكل الإسلام والفطرة الأصيلة سمتها ، لقد شاعت تقاليد وقيمٌ وأعرافٌ فاسدةٌ يؤكِّدها الإعلام بمختلف وسائله ، وتعزِّزُها كثيرٌ من القوانين في بلاد المسلمين، وإليك نماذج يسيرة من الواقع :
- ضعف التديُّن لدى كثيرٍ من النَّاس حتى أصبحوا لا دينيِّين في تَصوُّراتهم وأعمالهم اليوميَّة.

- موت الأريحية والرُّجُولة التي كانت مظهر إنسانية العربي قبل الإسلام وبعده .
- ذوبان العائلة وحدوث التقاطع بين ذوي الرحم ، والتبرم من الآخرين حتى ولو كانوا آباء أو أبناء أو إخوةً .
- استرجال المرأة وفقدان الرَّجل قوامته الشرعيَّة ورجولته عليها .
- ذهاب الحياء وقتل العفاف ، وشيوع الفواحش التي تحميها القوانين وتسهل للناس مُوَاقعتها .
- الحقد الطبقي والعنصرية العرقية واللَّونيَّة .
- الوطنية الضَّيِّقة التي تتحول إلى حميَّة جاهليَّة تخنق الآخرين .
- اصطباغ الحياة بالنِّفاق والأنانية المفرطة .
- إهانة شعائر الدِّين وأهله .

إلى غير ذلك من القيم والتقاليد التي لم تعد في كثير من مجتمعات المسلمين شذوذات فرديّةً أو حتى تأثُّرات اجتماعيَّةً ، وإنما هي توجُّهٌ مقصودٌ يدفع الناسَ إليه مفكرون في كتاباتهم، وإعلامٌ في وسائله ، وأنظمةٌ في قوانينها .

**القِيَمُ في المجتمع السعودي :**

المجتمع السعودي كغيره من مجتمعات المسلمين ورث التقاليد والأعراف التي خلَّفتها عصور الضَّعف عند المسلمين ، كالاتكاليَّة والخرافيَّة والسَّلب والنَّهب والتناحر لأوهى الأسباب، وفقدان الطموح . . .إلخ ، ولكنّ الدعوة الإسلامية فيه بما بعثتْ من منهجٍ سلفيٍّ يجعل تعاليم القرآن والسنة مصدرَ التَّوجيه الأول لعقل الإنسان وحركته، استعادت قدراً عظيماً من السَّمْت الإسلامي والمسلك الإنساني لأتباعها في حياتهم الفردية والاجتماعية، وإنَ

كان هذا السَّمْتُ لم يتجذَّرْ في مجتمع الجزيرة بالشكل المفترض، فقد كان يهتزُّ كُلَّما ضعفت الدولة وخَفَّ توجيه الدَّعوة ، كما حدث بعد سقوط الدولة السعودية الأولى والثانية ، حيث يعود السَّلب والنَّهب والأعراف القبلية وروح البداوة والجفاء .

وحينما أقام الملك عبد العزيز الدَّولة السّعودية الثالثة ، وفي وجدانه أن يجعل منها مجتمعاً متماسكاً مُتحضِّراً ، وذلك لا يتحقق إلا من خلال نسيج القيم الصَّالحة والمبادئ الإنسانية التي دعمتها الشَّريعةُ ؛ لذا كان من أبرز اهتماماته الارتقاء بسمت مجتمعه إلى المستوى القيمي الذي يكون به ممثِّلاً للإسلام بحسب الممكن بشريّاً وظرفيًا، والذي تكون به المملكة على مستوى الصُّمُود أمام الخضات التي اهتزَّت بسببها مجتمعاتٌ كثيرةٌ أمام ما تقذف به الحضارة الغربيَّة من قيم وثقافة ، ولقد وجد الملك عبد العزيز العون والتجاوب الحيَّ من العلماء ومن شعبه الواعي بجلال العمل الذي يقوم به .

وكانت الثمرة وجود مجتمع متميِّز بقيَمه الإسلامية ، وتقاليده العربيَّة المنبثقة من الفطرة الإنسانية في ظلِّ انحسارٍ لعَامَّةَ هذه القيم .

إنّ الناظر في هذا المجتمع خاصّةً قبل طوفان العمالة الوافد ، أي حينما كان المجتمع يعكس صورة السّعودي من خلال أفراده ، يجد لوحةً متماسكةَ الخطوط من القيم والتقاليد النبيلة السَّامية التي ما تزال عامرةً بفضل الله .

- فالتديّن سمةٌ عامةٌ للمجتمع على المستوَيَيْن الرَّسمي والشعبي في تجلِّيات عديدة، حرصاً على الفروض الدِّينيَّة ، وبالذات صلاة الجماعة ، وسؤالاً عن أحكام الدّين، واستتاراً بالمعصية، ونفوراً من أهل الفسق المبغضين للدين، وتعاوناً على إقامة المعروف وتقليل المنكرات ، والشعور بمخاطر الفساد والإلحاد .

- وهناك قيمةٌ أخرى يمكن تسميتها « العقلانيّة الشّرعيّة » ، وتتمثَّل في الحرص على الثقافة الشّرعيّة ، والوعي الشّمولي للإسلام ، واحترام العلم والعلماء ، ورفض الخرافة والدَّجَل كهانةً وعرافةً وسحراً . . إلخ .
- الرّوح العمليّة حبّاً للعمل واندفاعاً في سبيله، واستهجاناً للقعود والكسل، واعتباره خللاً في شخصيّة صاحبه .
- الرّجولة : وهي شعور الرَّجل بكرامته ؛ أي مسؤوليته الإنسانية في علاقاته؛ في علاقته بالمرأة إحسانا للقوامة عليها وطيبا في العشرة معها وتحملا لجوانب الضعف فيها وكذلك مع الأقارب بالتواصل معهم ، والشعور برابطة الرَّحِم حتى ولو أثرى الإنسان، أو علا منصبه ، فمن العيب في حسِّ المجتمع ذلك التقاطع العائلي الواقع في مجتمعات أخرى بين ذَوي الرَّحِم ، أو حتى بين الآباء والأبناء والإخوة مع بعضهم .
- الخيريّة التي تبعث على التعامل بالحبّ مع الآخرين ، ونسيان الإساءة بعد مضيِّ وقتها، وقد ضرب الملك عبد العزيز -رحمه الله- المثل الرَّائع حينما أصبح أعداؤه الذين حاربهم وحاربوه من أكابر جلسائه ، وأخصِّ أصفيائه ، وكان هذا الموقف مبنيّاً على قيمة خيريّة أخرى هي : أنّ إكرام الشّخص « الكريم » يأسره عن أيِّ فساد أو غدر [1] .

ومن هذه الروح الخيريّة : إفاضة الخير بالصّدقات والتبرّعات في

---

(١) على حدّ قول المتنبّي :

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيْمَ تَمَرَّدَا

حيث سئل الملك عبد العزيز : كيف تمكّن لهؤلاء - أناس كانوا ضده ثم أصبحوا معه - من السلاح يحاربون معك وهم أعداؤك الذين كانوا حرباً عليك ؟ قال :

« لم أتركهم يحاربون بجانب إخواني وأبنائي وعشيرتي إلا بعد أن وثقتُ أنّ إخلاصهم لي يشابه إخلاصكم ، ولا يختلف عن إخلاص أيّ واحد من إخواني وأبنائي » . انظر : صور من حياة عبد العزيز، طلال بن عبد العزيز ، ص ٩٧ ، إعداد كمال كيلاني، الطبعة الثالثة ، ١٤١١هـ، الرياض .

الصَّالح العام ، كبناء المساجد ، ونشر العلم ، وفي المسالك الخاصّة للمحتاجين .

- الحياء والحشمة وحفاظ المرأة على عفافها من أدناس الفُحش والرّذيلة ، حيث بقيتْ هذه الأدناس التي أصبحتْ وضعاً طبيعيّاً في كثير من المجتمعات المعاصرة صوراً مستقذرةً في هذا المجتمع ، سواءٌ كانت زناً ، أو صداقةً بين الرجل والمرأة الأجنبيّة عنه ، أو اختلاطاً مريباً ، أو سفراً للمرأة بدون محرمٍ ونحو ذلك .
- المشاعر النافرة من الخبائث المتقذر منها خمراً وخنزيراً واحتضاناً للكلاب ونحوها .
- شيوع الآداب الشَّرعيّة في حركة الناس وتعاملهم في أكلهم ولباسهم وتحيّتهم ، واحترام الكبير فيهم . . .

هذه نماذج لمفردات من القيم والتقاليد ذات الصّبغة الشرعيّة والأصالة الفطريّة التي تمثِّل قوام المجتمع السُّعودي المعاصر ، ولا ريب أنّ في مجتمعات المسلمين من هذه المفردات نماذج تقلّ أو تكثر ، لكن أهمّ ما يتفرّد به المجتمع السّعودي أنّ هذه القيم تُمثِّل توجُّهَهُ العام من جهة ، وأنّ النظام الحاكم -من جهةٍ أخرى وأهمّ- يتبنَّى تثبيتها وحمايتها في المجتمع :

- تثبيتها بالدعوة إليها ، وتضمينها مناهج التعليم الدراسيّة ، وتشجيع الناس على ممارستها ، وتقديرهم لأهلها .
- وحمايتها من خلال وضع النظم الحافظة لها ، كمنع الاختلاط في التعليم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومن خلال ردع من يخترقها ويستهتر بها .

وهذه النقطة - أعني دور الدولة في رعاية القيم وحمايتها وكونها التوجُّه

العام – هي التي يعنينا إبرازها ؛ لأنّها تبقي صمام الأمان للمجتمع ، وإلا فالاختراقات الفرديّة لهذه القيم موجودةٌ ، وقد وضحت بتأثير الطّفرة الماديّة التي حدثتْ قبل عقدين من السِّنين ، وما صاحبها من امتزاجٍ بالشُّعوب الأخرى بالسَّفر إلى الخارج أو عن طريق العمالة الكثيفة الوافدة فضلاً عمَّا تنقله وسائل الإعلام من صورٍ حياتيّةٍ ممثَّلة أو حقيقيّة لا تقيم وزناً لتلك القيم .

ولكنّ الإيمان والقناعة لدى العلماء ورجال الدولة – ولدى عامة شعب المملكة المؤمن – بأنّ هذه القيم تمثِّل جزءاً من شخصيّتها الإسلامية التي تفخر بها أمام المجتمعات الأخرى ، بل تمثِّل أساساً من أسس بنائها الحضاري ، الذي يعطي الأولويَّة للإنساني على المادِّيِّ ، هذا الإيمان وهذه القناعة هو الحافز على التزام الدولة برعاية هذه القيم ، وتضمين كلّ خطّة أن تطبّق بنودها في « إطار القيم الإسلاميّة » و « تقاليد المجتمع السعودي الأصيلة » .

وقد أخبر الرَّسول ﷺ في أحاديث كثيرة أنّ وقوع المعاصي الفرديّة وخاصّةً إذا استتر بها أصحابها لا يسحب البلاء على المجتمع ويمحق إنسانيّته ، ويجلب غضب الله عليه ، وإنّما يحدث ذلك إذا تواطأ المجتمع على انتهاك القيم ، وهتْك الحرمات ، وأُعلنتْ الرَّذيلة ، وأُقرَّت من السُّلطة الاجتماعيّة ، وحُوربَتْ القيم الفاضلة إعلاماً وقانوناً ، فهاهنا –والعياذ بالله– يحيق مقت الله بالأمة ، وتُمْسَخُ شخصيّة المجتمع الإنسانيّة، ويصبح مهبطاً لعقوبات الله المعنويّة والماديّة، وينحدر حضاريّاً .

ومن ذلك حديث السَّفينة المشهور : « مَثلُ القائمِ في حُدُود الله والواقع فيها كمثل قومٍ اسْتَهَمُوْا في سفينة، فكان بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استَقَوْا مَرُّوا على مَنْ فوقهم، فقالوا : لو أنَّا خَرَقنا في

نصيبنا خرقاً فلم نؤذ مَنْ فوقنا ، قال ﷺ : فإنْ تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعاً »[1]. وكذلك قوله ﷺ فيما رواه ابن ماجه : « لم تظهر الفاحشة في قومٍ حتى يُعلنوا بها إلا فَشَا فيهم الطّاعونُ والأوجاع التي لم تكنْ مضتْ في أسلافهم »[2] .

وأخبر الرّسول ﷺ أنّ بني إسرائيل حينما بدأ فيهم الانحراف والوقوع في المعاصي كان أولو الأمر من العلماء ينهونهم وينكرون عليهم ، ولما شاعت المنكرات حتى استمرأ وجودها العلماء أنفسهم ، فكانوا يجالسون أهلها ، ويؤاكلونهم ويشاربونهم دلالةً على الرّضا عنهم ، عند ذلك « ضرب الله قلوب بعضهم ببعضٍ ولعنهم »[3] .

والمقصود أنّ الموقف الإيجابي من السُّلطة الحاكمة والسُّلطة العلميّة في مجال الحفاظ على القيم السَّامية التي بها حياة المجتمع ميزةٌ كبرى للمملكة العربيّة السعوديّة تتفرَّد بها بين مجتمعات الأرض ، وأنّ الاختراق الشّاذَّ لشيءٍ من أفراد هذه القيم – وإن كان من واجب السُّلطة درؤه ووقاية المجتمع من تلويثه – إلا أنّه لا يستطيع تذويب هذه القيم وإسقاط المجتمع في هوَّة التحلُّل والفوضى الخلقيّة، ما دام توجّه السّلطة والعلماء وعامة الشعب رافضاً ومقاوماً لهذا التذويب .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة، الباب السادس، ٣/ ١١١ .

(٢) سنن ابن ماجه بتحقيق محمد مصطفى الأعظمي، ٢/ ٣٨٥، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ. ونقل المحقق قول البوصيري : « هذا حديث صالح للعمل به » .

(٣) من حديث رواه الترمذي في سننه رقم (٣٠٥٠)، باب تفسير سورة المائدة من أبواب تفسير القرآن، وحسّنه .

## ثانياً : التُّرَاثُ

التُّـراثُ هو حسب الاصطلاح المعـاصـر : الآثار التي خلفـهـا السَّـابقـون للاحقين في المجالات الثقافيّـة والمدنيّة في وجوه الحياة المختلفة ، وفي العالم العربي يتداخل وصفا « الإسلامي » و « العربي » للتراث الخاص بالأمة العربيّة .

وقد عانى المسلمون في عامة مجتمعاتهم مشكلةً مع التراث ( تراثهم ) في بناء وجودهم في العصر الحديث .

والسَّبب الأساس في إحداث هذه المشكلة هو الغرب استشراقاً واستعماراً بالدرجة الأولى ، ووجوداً حضاريّاً سائداً بعد ذلك .

لقـد سعى الغرب الاستشـراقي والاسـتعـماري إلى تحطيم تراث الأمـة وتشـويه صـورته في عـقـول أبنائه ، وألقى في روعـهـم أنّه لا يمكن الجـمع بين التمسُّك بهذا التراث وامتلاك الحداثة الحضاريّة ، وحينما استعمر كثيراً من البلاد الإسلاميّة جعل لغاته هي اللغة الرَّسميّة للدولة ، وأمات لغاتها الأصليّة حتى سعى في بعض الدول لجعل لغتـه هي لغـة الحـديث والمفـاهمـة ، واهتمَّ بالدراسات المَعْنيَّة بتاريخه وحضارته ونظمه على حساب الدِّراسات العربيّة والإسلاميّة ، ونَقَل إلى البلاد المستعمرة نظمه الإداريّة والقانونيّة ، وحارب النظم الوطنيّة ، سواءٌ كانت الشريعـة أو الأعـراف السَّائدة أو كليهـمـا ، كـمـا أنّه حارب تطوير النظم التعليميّة الموروثة واضعاً بجانبها نظمه التعليميّة في منافسةٍ ، منحازاً فيها للثانية على حساب الأولى لتذوب وتموت [1] .

نتيجـةً لهذا ولعزل أبناء المسلمين عن تراثهم ، تحوَّل هؤلاء الأبناء حتى بعد رحيل الاستعمار إلى جنودٍ يحاربون تراثهم وهم لم يعرفوه ، ويمجِّدون

(١) انظر : في معركة التراث ، لعون الشريف قاسم ، ص ٥٧ ، ١٤٠٠هـ، دار العلم، بيروت .

الحداثة الأوربيَّة في كلّ مجالات الحياة دون أيِّ جهود إبداعيّة تشارك في تكييفها مع بيئتهم ، وأنَّى لهم هذه القدرة الإبداعيّة وقد ظلُّوا تلاميذ في دراستهم وفي تدريسهم ، وفي نقلهم وترجماتهم لتلك الحضارة، وقد يفيق بعضهم بعد فترة الشباب بدافع الحنين الداخلي لأمته ، ويشعر بمنطق فلسفيٍّ أنّ الهويّة للفرد وللأمّة لا تتشكَّل إلا من خلال تراثها ولات ساعة جهدٍ يفيد ، فلا هو بعارف بتراثه، ولا بمستطيع التحرُّر من الحالة التغريبيّة التي بنى وجوده عليها[1] .

وحينما حاول بعضهم صادقاً التعاملَ مع التراث وجدوا أنّه قد أقيم بينهم وبينه حاجزٌ يصدمهم عن التفاعل معه والعيش في رحابه ، ووجدوا أنّ دراساتهم القانونيّة والإداريّة جعلتهم يعيشون لغةً ومصطلحات ومناهجَ غَريبةً تماماً عن مصطلحات ومناهج تراثهم العلمي في الشَّريعة والنظم[2]، ووجدوا أنّ أنماط الحياة الأصيلَة في تراثهم ؛ وازعاً ذاتيّاً عن المحارم، وحشمةً وعلاقات أخويّة ونحوها انسحقتْ تحت أنماط الحياة الوافدة المضادَّة لها .

أمَّا أبرز صور التفاعل مع التراث للمتأثِّرين بالتغريب فإنّها :

- صورة الانتقاء السَّيِّئ لجوانب من التراث ، أملى اختيارَهَا التوجيهُ

---

(١) يوجد كثيرٌ من هذا النمط ، ولعلّ من أبرزهم فلسفةً لهذا الموقف : الدكتور زكي نجيب محمود، الذي ذكر في كتابه " تجديد الفكر العربي " : « لم تكن قد أتيحتْ لكاتب هذه الصفحات في معظم أعوامه الماضية فرصةٌ طويلةُ الأمد، تمكنه من مطالعة صحائف تراثنا العربي على مهل، فهو واحدٌ من ألوف المثقفين العرب الذين فتحتْ عيونهم على فكر أوربي -قديم أو جديد- حتى سبقتْ إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكرَ سواه؛ لأنَّ عيونهم لم تفتح على غيره » ص ٥ ، الطبعة السادسة، ١٤٠٠هـ، دار الشروق .

(٢) لعلّ قصَّة عبد القادر عودة حينما أراد بحث القضايا الجنائيّة في الفقه الإسلامي فتعب، ولم يفهم حقَّ الفهم، حتى أجهد نفسه، وعاد يتعرَّف مناهج الأصوليين والفقهاء في دراسة المسائل، حتى لانتْ له صعابها، مثالٌ على ذلك . انظر : التشريع الجنائي الإسلامي ، لعبد القادر عودة، ١/ ٩-١٠ ، دار الكتاب العربي، بيروت .

الاستشراقي ، ومن ثمَّ الفكر الاستغرابي عند المسلمين ، فأساؤوا إلى مجتمعاتهم وأمتهم بهذه الاختيارات .

ففي فورة الوطنيَّات الضَّيِّقة اتجه عديدٌ من الأفراد والأحزاب لبعث التراث الفرعوني والأشوري والفينيقي والبربري لبناء حاضرِ المجتمعات المسلمة ، التي وجدتْ هذه الحضارات في أرضها .

وفي فورة الاشتراكيات العربيّة أبرزتْ حركات الرَّفض التي خرجتْ على المسلمين في التاريخ الإسلامي ، مثل حركة الزنج والقرامطة والحشَّاشين وغيرها .

أو انحصر الاهتمام بالتراث بجوانبه الشَّكليّة العمرانيّة والفنيّة والفلكلوريّة دون قضايا التصوّر والنظم ونحوها من أساسيات الوجود الإنساني ومشكّلات ثقافته .

- الصورة الثانية : تتمَثَّل في تكييف التراث ليكون خادماً للحاضر ، أي صياغة التراث صياغةً جديدةً حتى ولو ناقضتْ حقيقة التراث من أجل تأييد أفكار معاصرة ، أو تحسين أوضاع قائمة[1] .

هذه الحالة التي تمثَّلتْ في أزمة تعاملٍ مع تراث الأمّة لم تكنْ محصورةً بنخبة مثقَّفة تتطارحها في كتابات فكريَّة وصحف متخصّصة ، وإنما هي أزمةٌ مُخَيَّمةٌ عانى منها عموم المسلمين أحزاباً وحكومات وناشئةً مُبَلْبَلَةَ الفكر ، ممزَّقةَ الوجدان بين تراثها وحاضر غيرها اللذين يَهزَّان بتناقضهما أعماق هذا الوجدان .

---

(١) يمكن الإشارة إلى منهج الدكتور الجابري في كتابه : نحن والتراث ، ص ١١ ، ٦٢ ، وإلى الدكتور زكي نجيب محمود سالف الذكر في كتابه نفسه .

**المملكة العربيّة السعوديّة والتراث :**

لمعرفة موقف المملكة علماء وقادة من التراث وفق المنهجية التي تتعامل معها مع سائر القضايا ينبغي أن نتبين أن التراث يتمثل في خطوط عديدة، أبرزها :

- تعاليم الوحي المتمثِّل بالقرآن الكريم والسنة الثابتة عن الرّسول ﷺ .
- العلوم التي انبثقتْ من الوحي وتطوَّرتْ في إطاره مثل علم الفقه .
- الفكر الفلسفي والكلامي « علم الكلام » .
- الفكر الباطني الغنوصي .
- القيم الاجتماعيّة أعرافاً وتقاليد .

ولا ريب أنّ هذه الخطوط فكراً وقيماً تمثِّلُ كمّاً كبيراً يحمل من التناقض والزمنيّة الشيء الكثير ، مما يُحتِّمُ عمليّة الانتقاء ، وهنا تأتي مسألة فرز هذا التراث إلى نمطين :

**الأوّل** : ما يُشكِّلُ شخصيّتنا وهويّتنا ، ويحدد معيار انتقائنا .
**الثاني**: ما نتحكّم فيه نحن بواسطة ذلك المعيار .

والنتيجة المنطقيّة لتحديد النمط الأوّل من خطوط التراث السَّابقة لدى ابن المملكة ، بل لدى كلّ مسلم هي : أنّ الخطَّ الأوّل المتمثّل بتعاليم الكتاب والسنة هو الجانب الذي يحدِّد من التراث[1] -بالدرجة الأولى- هويّتنا ومعيارنا .

وإذا ضممنا إلى هذه التعاليم أصدق تمثيلٍ بشريٍّ لها فهماً وتطبيقاً وهو

(١) هل الوحي يُعَدُّ تراثاً أو لا يُعَدُّ فيُحصر التراث في الإنتاج البشري ؟ خلافٌ بين الباحثين، وهو لفظي في الأغلب ؛ لأنّ مُدْخليْ الوحي في التراث يجعلونه متميّزاً عن التراث البشري بتنزّهه عن النقص والخطأ . انظر : السّلَفيّة وقضايا العصر ، للمؤلّف ، ص ٣٢٠، مصدر سابق .

تطبيق الرَّسول ﷺ وأصحابه ، وهو التمثيل الذي توجّهنا إليه التعاليم نفسها : ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾[1] ويقول الرّسول ﷺ : « عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الرَّاشدين المهديين ، تمسّكوا بها »[2]، ويقول أيضاً عن وصف الجماعة التي تكون عبر الأزمان أقرب الناس للحقّ هي : « ما كانت على مثل ما أنا عليه وأصحابي » .

بهذه التعاليم وبذلك التمثيل المزكَّى منها يتحقّق النمط الأول الذي به ، وبه وحده تتحدَّدُ الشخصيّة الحقيقيّة للمملكة العربية السعوديّة وهويّتها ، ليس لأنها لم تعرف تراثاً مجيداً منذ تشكَّل عنصرها العربي الحضاري مع إسماعيل وأبيه إبراهيم اللذين أشادا - عليهما السلام - منارَ التوحيد في هذه الجزيرة، وبَنَيَا البيت الذي سيظلُّ مثابةً للناس وأمناً ، والذي تمثل خدمتها له ورعايتها للملايين الهاوية إليه ورفادتها إحدى مفاخرها، ولا لأنّ فيها ظهرتْ الرسالة الخاتمة للبشريّة كافةً ؛ حيث من هذه الديار من مكة المكرمة كان إشعاع الهداية الإلهيّة للأرض كلّها، وإليها - إلى طيبة الطيِّبة فيها - يأرز الإيمان[3]، وبها مسجد الرسول ﷺ ومثواه ، بلْ لهذه الأساسيّات كلّها، ولأنّ هذه المملكة وريثة الدّعوة التي أبرزتْ بشكلٍ جادٍّ وعمليٍّ هذا النمط المتميّز من التراث في وقت كان هو النمط المتراجع في كثيرٍ من ساحات الفكر والعمل في المجتمعات الإسلاميّة .

لهذا أصبح هذا النمط لصيقاً بهذه الدولة حتى صار أبرز معالم شخصيّتها التي لا تنفكُّ عنها .

---

(١) الآية رقم (٢١) من سورة الأحزاب .

(٢) رواه أبو داود في سننه، كتاب السنة برقم ٤٦٠٧ في ٤/ ٢٠١، والترمذي في سننه ، كتاب العلم ٤/ ١٥٠، وقال عنه : « حديث حسن صحيح » .

(٣) رواه البخاري في صحيحه في كتاب فضائل المدينة ، ومسلم كذلك في صحيحه في كتاب الإيمان . انظر : جامع الأصول، ٩/ ٣٣٣ .

بهذا النمط = المعيار= المنهج السَّلفي انفتحتْ المملكة على التراث ، لا الإسلامي فقط، بل الإنساني كلّه ، وتعاملتْ معه طامعة من خلال هذا المنهج أن تكون مواقفها سليمة وتعاملها مع القضايا إيجابيا .

ولاريب أن اتخاد هذا الأسلوب في التعامل مع التراث يجعله قوة للنفس، وثقة في الحركة، وعبرة بالأحداث، وأنه يساعد بقدر كبير على تجاوز جوانب القصور التي يقع فيها من لم يأخذ به فرداً أو مجتمعا .

إنه منهج التوازن في التعامل مع خطوط التراث المتعدِّدة لا بالنفي الكُلِّي والقطيعة الشاملة، ولا بالتعصُّب الآبائي غير الواعي، ولا بالانتقاء العشوائي المتخبِّط، وإنما بالمعيار الذي يفرز السَّليم من غيره؛ ليستثمر الأوّل، ويتَّقِيَ آفة الآخر .

والمتأمل في مواقف الملك عبد العزيز من قضايا السياسة أو غيرها يجد أنه سعى للتوازن بين النظرات الآخذة بطرف من هنا أو هناك :

مثلاً القوميّة : مصطلح استخدم حديثاً في البلاد الشرقيّة العربيّة لاتجاه يسعى لتشكيل شخصيّة عربيّة منفصلة عن الشخصيّة التركيّة ، ولا يكون هذا الانفصال إلا باستبعاد الجامع بينهما وهو الإسلام ، فكانت لدى هؤلاء مضادّةً للإسلام، مما حفزَ المقابلين لهم لرفض هذا الاتجاه، ومن ثمَّ إنكار أيّ خصائص قوميّة للعرب، حتى أصبحتْ لفظة القوم والقوميّة تثير حساسيةً وتساؤلاً لدى الناس ، لكن الملك عبد العزيز كان يقول واثقاً من نفسه والتزامه الديني : « الحمد لله الذي حفظ لنا ديننا وعروبتنا وقوميّتنا »[1] .

(١) السّعوديون والحلُّ الإسلامي ، ص ٣٣، مصدر سابق .

لقد أصبح هذا المنهج في التعامل مع التراث الإنساني كلّه لا مجرّد مسلك قياديٍّ للحكّام أو العلماء ، وإنما وعياً عاماً في المجتمع ، تَرَبَّى عليه دراسةً وتربيةً دينيّةً حتى صار الناشئ بحدسه الفطري والدِّيني لا يجد حساسيةً من الإعجاب بخصلة الكرم ، التي تعرض له من خلال شخصيّة حاتم الطَّائي ، الذي مات قبل الإسلام ، ولا من الحديث عن الاختراعات المفيدة للبشريّة من قبل أديسون الغربي الكافر ، ولكنّه ينزعج ويرفض -مثلاً- تهجُّم أبي بكر الرازي على النبوّة والأنبياء، وينكر الدَّعوة المجونيَّة المنسوبة إلى عمر الخيام ، ويمقت حركة القرامطة التي شَوَّهتْ الإسلام وأساءتْ لمقدَّساته وأهله . . . إلخ .

وعلى هذا المنهج المعياري أيضاً تكَوَّن لدى الإنسان جدِّيَّةٌ فكريَّةٌ ونفسيَّةٌ في التعامل مع التراث ، تنظر إليه من الزاوية العقديّة الفكريّة ، ولأنّ الإسلام -الوحي الإلهي- قد أمدَّ هذا الإنسان بالغناء الوافي في هذا المجال، مما يجعله ينظر إلى كلّ جديدٍ بشريٍّ تراثيٍّ أو غيره بصفته ثانويّاً تابعاً .

لذا فإنه لا تدهشه هذه المكتشفات التراثيّة بالصّورة التي توجد لدى غيرها .

أيضاً فإنّ مما يُشَار إليه أنه إذا تحدث حاكمٌ أو عالمٌ عن « تراثنا » أو « تاريخنا المجيد » أو « أسلافنا العظماء » أو « ما ورثناه عن أجدادنا » أو نحو ذلك من العبارات، فإنّ المقصود بهذا التراث ما ذكرنا من المنهج الذي سار عليه صحابة رسول الله ﷺ مرتكزاً على تعاليم الكتاب والسنة ، والذي حمله بعدهم العلماء والمصلحون والولاة من أهل السنة ، الذين خدموا الإسلام وجاهدوا في سبيله ، ونشروا دعوته على مَرِّ القرون ، ولا يدخل في ذلك الأفكار الشَّاذَّةُ عن الإسلام ،

ولا الحركات والاتّجاهات التي خرجتْ على الدين وجماعة المسلمين ، وأعاقتْ حركة الجهاد والفتوحات ، فكلّها ندوبٌ في تاريخنا الإسلامي[1] .

(١) وهكذا تبتدئ من تعاليم الوحي لتسير حركة التراث ، أو تنظر في التراث لترتد إليها . . . في حديث لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد للحجاج عام (١٤٠٦هـ) يتحدَّث عن واقع الأمة ثم يعرج على التراث لاستلهام العبرة منه يقول : « إنَّ تاريخ هذه الأمة الإسلاميّة العظيمة حافلٌ بأروع القصص ، وزاخرٌ بالأمجاد والانتصارات ، ولو عُدْنَا إلى سيرة الآباء والأجداد وتتبَّعنا مسيرة قادتنا الأشاوس منذ فجر الإسلام ، لعرفنا أسباب ما نحن عليه اليوم من الفرقة والضياع ، فالنصر على أعدائنا - يا إخوة الإيمان - لا يكتب لنا إلا إذا نحن نصرنا الله ، وذاك هو وعد الله في قوله تعالى : ﴿ **إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾ الآية رقم (٧) من سورة محمد » . انظر : كلمات منتقاة ، ص ١٩٧ . مصدر سابق .



obeikan.com